ثنائية الحب والفناء في تجربة السهروردي العرفانية

د. أمال محمد عامر
am_libya_al@yahoo.com
كلية الآداب – جامعة مصراتة

الملخص:

إن تجربة الفناء تتأسس على الحب وتحمل معاني الخضوع والتسليم المطلق للإرادة الإلهية والافتقار إلى رحمته تعالى وعطفه وعنايته، ومشاعر الوجد للعارف تنطوي على إقرار لإرادة الله وتسليم مطلق لها وليس اتحاداً ولا تداخلاً بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية.

حيث اقترن الحب بالفناء في التجربة الصوفية، وفي هذا السياق حاولنا أن نتبين دلالة ارتباط هذين المفهومين من خلال التجربة العرفانية الوجدانية؛ التي اتسمت بالانفعالية القائمة على الوجد؛ وإذاعة خفايا الشهود القلبي في تجربة الفناء في الحب الإلهي.

ومن خلال تجربة السهروردي ونصوصه العرفانية المفعمة بمعاناة الوجد ومعاني المجاهدة الروحية في وصف أحوال العارفين، وتجليات الوجد الصاعد في عاطفة الحب الإلهي، حاولنا ملامسة معاني الفناء في المحبوب؛ حيث تجلي المنحى الوجداني الشهودي في تجربته وخطابه الصوفي.

مقدمـــة:

اقترن الحب بالفناء في التجربة الصوفية، وفي هذا السياق نحاول أن نتبين دلالة ارتباط هذين المفهومين من خلال التجربة العرفانية الوجدانية؛ التي اتسمت بالانفعالية القائمة على الوجد؛ وإذاعة خفايا الشهود القلبي في تجربة الفناء في الحب الإلهي.

ومن خلال تجربة السهروردي ونصوصه العرفانية المفعمة بمعاناة الوجد ومعاني المجاهدة الروحية في وصف أحوال العارفين، وتجليات الوجد الصاعد في عاطفة الحب الإلهي، نحاول ملامسة معاني الفناء في المحبوب؛ حيث تجلي المنحى الوجداني الشهودي في تجربته وخطابه الصوفي.

الفناء لغةً واصطلاحاً:

أ- الفناء لغةً:

فَنَى: فناءً فهو فان، والمفعول مفني فيه. وفناء الإنسان: زواله وهلاكه. والفناء نقيض البقاء، والفعل: فنى: يفنى. وفنى الشيء باد وانتهى وجوده ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[1].

وفنى في عمله: أي بذل غاية جهده لإنجازه[2].

وفيما يأتي نحاول رصد مفهوم "الفناء" في بعدها الصوفي ودلالاتها العرفانية.

ب- الفناء إصطلاحاً:

الفناء: هو سقوط الأوصاف المذمومة للمريد الصادق والبقاء بالأوصاف الخيرة[3]. أي أنه إذا فني العبد عن سوء الخُلُق بقي بالأخلاق الحميدة. فالفناء والبقاء متكاملان عند الصوفية، فمن فني عن الدنيا وزخرفها بقلبه بقي بالله خلقاً وقلباً. ومن استولى عليه سلطان الحقيقة فلم يشهد من الأغيار لا عيناً ولا أثراً، أي أنه فني عن الخَلق وبقي بالحق، أي أنه بقي مع الله وفي الله بروحانيته[4].

ومن خلال التعريف السابق يتضح ماتحمله مفردة "الفناء" من معاني المجاهدة الداخلية مع الذات بالتخلية من الأوصاف المذمومة، والتحلية بالأوصاف المحمودة في رحلة معراجها

1- سورة الرحمن، الآية 26.

2- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ج11، د. ت، ص2635.

3- حسن الشرقاوي، معجم ألفاظ الصوفية، مؤسسة مختار للنشر، القاهرة، 1987م، ص227.

4- حسن الشرقاوي، المرجع السابق، ص228.

الروحي من أجل التحقق بالبقاء بالله خلقاً وقلباً لايأنس إلا بمعبوده، فانياً عن زخرف الدنيا بقلبه.

- مفهوم الفناء ومعانيه:

تمر الذات الصوفية في تصفيتها للنفس بمقامات وأحوال تفتح أمام الذات المسافرة مستويات للارتقاء والسمو، ويتجلى فيها الحب وفناء العبد عما سوى المحبوب من الأغيار.

ويمكن القول أن الفناء هو الدرجة القصوى في سلم المعراج الروحي عند الصوفية، فهو إدراك ذوقي للحق اللامتناهي في حالة شعور عميق بوحدة شاملة، فلا يبقى أمامه سوى الله بعد أن يغيب شعوره بفرديته وأنيته، فهو انفصال عما يفنى الذات واتصال بما يبقيها؛ وموت عما سوى الله وحياة بالله وبقاء به.

والصوفي في حال الفناء يعيش حال الوجد المتلون بالشوق والقلق في مسافة التوتر؛ ما بين حضور وغياب، واتصال وانفصال، وبقاء وفناء. لأن الفناء في مفهومه يحمل وجهاً آخر هو "البقاء". إذ أن الفناء عن شيء يقتضي البقاء بشيء آخر، فالفناء عن المعاصي يقتضي البقاء بالطاعات، والفناء عما سوى الله يقتضي البقاء بالله، وهكذا فاللفظان متكاملان لايُفهم أحدهما إلا بالآخر.

وبالتالي يمكن تحديد مفهوم الفناء من خلال ركيزتين:

أولاً: مرور الفناء بمراحل تبتدئ بالفناء عن المعاصي والأخلاق الذميمة، وتنتهي بالفناء عما سوى الله والبقاء به وحده، وهو بقاء بالأخلاق الحميدة.

ثانياً: تتم حال الفناء بفقدان العارف شعوره بأنيته لأن الأنا حاجز شعوري، فلا يتحقق العارف بالمقام إلا بتجاوز هذا الحاجز.

والفناء إذن باعتباره حالاً خاصة للصوفي هو في أحد معانيه تجرد من الأخلاق المذمومة، أما في الوجه الثاني له أي البقاء فهو تخلق بالأخلاق المحمودة. وفي هذا المعنى يشير الجرجاني بأن: الفناء هو سقوط الأوصاف المذمومة، والبقاء وجود للأوصاف المحمودة[5].

5- الجرجاني، التعريفات، مطبعة الحلبي، القاهرة، 1983م، ص148.

وفي معناه الصوفي الآخر هو: الاستغراق في عظمة الله تعالى ومشاهدة الحق[6]. فالفناء يتطلب من الصوفي أن يفنى عن أوصاف ليبقى بأوصاف أخرى. ويصل الصوفي في حال استغراقه إلى حالة يغيب فيها عن نفسه وأوصافها، فيستغرق في الحق ذاته، ويفنى بفقدان الشعور بالذات، وتسمى عند الصوفية أيضًا اصطلاماً.

والاصطلام كما يراه الطوسي هو: وجد غامر يرد على العقول فيسلبها ويستلبها بقوة سلطانه، فهناك قلب مصطلم تُلقى إليه التجليات والحقائق والعطايا والكشوفات، وإذا وقع الاصطلام على هذا القلب يذهب عنه وعيه[7].

إنه فناء العارف المحب في المحبوب "الله عز وجل"، وهو محو يعقبه بقاء حيث فناء الإرادة الإنسانية لشعور الفاني بأن الإرادة الحقيقية هي إرادة الله، فيفنى عن إرادته ليبقى بإرادة الله تعالى. وبلسان الصوفية تسمى أيضا الجمع والفرق. فالفرق هو كسب العبد من إقامة العبودية من تكالي وفرائض شرعية، فإذا خاطب العبد الحق تعالى بلسان نجواه مستغفراً أو سائلاً أو راجياً أو مبتهلاً فهو في كل التفرقة وهذا يسمى بالفرق[8].

أما عندما يكون العبد في حال الفناء واستيلاء الوجد فيسمى الجمع. فإذا وقف العبد في مقام الجمع فهذا إشارة إلى ما يُقذف في قلبه من جهة الله تعالى من اللطف والإحسان والمعرفة، فإذا استمع العبد ووعى بسره إلى ما يخاطبه به الله فيما ناداه أو ناجاه أو ورد على قلبه فهو جمع[9]. وبالتالي فهي حال لا تتسم بالديمومة. لأن دوامها يوجب تعطيل الجوارح عن أداء المفروضات وعن حركاتها في أمور معاشها[10]. فلا فناء للصفات البشرية لأن

6- الجرجاني، المصدر السابق، ص149.

7- الطوسي، اللمع، تحقيق: عبدالحليم محمود، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1960م، ص450.

8- حسن الشرقاوي، المرجع السابق، ص108.

9- حسن الشرقاوي، المرجع السابق، ص109.

10- الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق: محمود أمين، مكتبة الكليات الأزهرية، القـاهرة، ج3، 1992م، ص151.

البشرية لاتزول عن البشر، ولا اتصاف بالألوهية. والصوفي المحب مهما بلغ وجده فهو يظل مدركاً ومؤمنا بتلك المسافة بين مقام الربوبية ومقام العبودية.

وفي هذا المعنى يقول ابن عربي: "أنا عبد مفتقر إليه سابح في ملكوته، غارق في فيض رحمته، عارف بضعفي وقلة حيلتي، مخلص في سري وعلانيتي، يرقى حتى يدرك أعلى مقام، ويهبط حتى يُحجب في بحار عظمته، ويخاف ويقلق وقبلها كان فرحاً سعيدا، فالإنسان أحوال يصعد فيها إلى القمة، ويهبط حيناً إلى القاع، ومهما بلغ من رقي العبد فإنه يدرك أنه العبد"[11]. فالعبد مهما وصل من مقامات فهو عاجز عن الإحاطة بالله لأنه تعالى أعظم من كل تصور.

مستويات الفناء:

ينقسم الفناء بحسب تصاعدها الشعوري وتدرج العارف في مراحل الترقي الروحي إلى ثلاثة مستويات. فناء في الأفعال وهو أن تشهد أن لافاعل إلا الله تعالى، وفناء في الصفات وهو أن تشهد أن لاحي إلا الله تعالى، وفناء في الذات وهو أن تشهد أن لا موجود إلا الله تعالى[12].

المستوى الأول: وهو الفناء عن الأفعال أو عن "إرادة السوي"، بفناء الصوفي عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق، ويبدأ بمجاهدة النفس وإفناء الصفات المذمومة وبقاء الصفات المحمودة.

المستوى الثاني: وهو فناء عن الصفات أوعن رؤية الأغيار، أي أن "شهود السوي"، أي فناء عن شهود الخَلق بشهود الحق. فحقيقته غيبة عن شهود غير الله تعالى. حيث يتحقق في هذا المستوى استبعاد الأغيار أو السوي عن دائرة التفكير وانحصار التفكير والتعلق القلبي في الله والتأمل في صفاته وصولاً إلى أعلى مستويات الفناء.

11– ابن عربي، الفتوحات المكية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ج1، 2006م، ص231.

12– الجنيد، رسائل الجنيد، تحقيق: أحمد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2006م، ص142.

المستوى الثالث: وفيه يكون فناء الصوفي عن شهود فنائه بالاستغراق في وجود الله. "أي الفناء عن الذات". فيغلب شهود القلب بمحبوبه ومذكوره حتى يغيب به ويفنى به[13]. لأنه يغيب بمعبوده عن عبادته، وبمذكوره عن ذكره، وبمشهوده عن شهوده، حيث يشرق قلبه بنور الحق في حالة الوجد التي يكون فيها مشغولا بمعبوده عن الأغيار.

ويتجلى في مستويات الفناء ذلك التحول الأخلاقي والنفسي للصوفي في سفره الروحي عبر مقامات يرتقي فيها بقدر ما يتحقق به من فناء عن الأخلاق الذميمة، ثم عن حب الأغيار من شهوات ومنافع دنيوية، وصولاً إلى فنائه عن شهود الأغيار، ثم عن شهود فنائه باستغراقه في الحق، وبقائه مع الحقيقة المطلقة التي يسافر إليها في مدارج الوجد والتوق.

ويمكن القول أن الفناء حالة تنطوي على تغير أخلاقي يتحقق فيها انصراف عن الموجودات، ويتجلى فيها الشعور بفناء المحب في محبوبه، حيث لايرى العارف إلا الله، مدركا أنه ليس في الوجود إلا هو، وأنه لافاعل ولامريد سواه. وبالتالي فالعارف لايكون في الحقيقة ناظراً إلا في الله، ولاعارفا إلا بالله، ولا محبا إلا له تعالى في حالة من الوجد التي تعد في جوهرها فناءا في التوحيد للحق تعالى.

ثنائية الحضور والغياب.. لوامع معاناة وإشراقات مجاهدة:

تجلى في خطاب السهروردي الصوفي وفي تجربته العرفانية المنحى الوجداني الشهودي، فكان الفناء في الحب الإلهي سمة ميزت تجربته الروحية، وتجلت في خطابه العاطفي، وكونت معرفته الذوقية.

وقد اعتمد السهروردي والصوفية عموما على الشعر بكثافته الانفعالية وامكاناته الإيحائية للتعبير عن مواجيدهم الذوقية، فجعلوا من الشعر مرآة لتجربتهم الوجدانية، حيث لايدرك المعنى إلا بالتماهي والمجاهدة، وبالتالي فهو لايأتيك ولايكشف عن عمق أغواره وإنما ترحل إليه وتسافر في أعماق المعاني وتجليات الوجد ولوامع الدلالات المتلونة بالمعاناة. ويعبر

13– ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، تحقيق: محمد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ج2، د.ت، ص174.

السهروردي عن مواجيده بعد أن امتلأ قلبه بمحبوبه الأسمى، واستولى عليه هذا الحب، فوصل درجة عالية تصاعد فيها الحب حتى فنيت إرادته في إرادة محبوبه.

بقوله: أفناهم عنهم وقد كُشفت لهم حُجُب البقا فتلاشت الأرواح.

وقوله: عودوا بنور الوصل في غسق الجفا فالهجر ليـــل والوصـــال صباح

صافـــاهم فصفـــوا لهم فقلوبـــهم في نورها المشكاة والمصبـــاح[14]

فهنا تعكس الأبيات معاناة الصوفي العارف في حال الفناء وهو ما بين معاناة فناء وبقاء وتوق الذات المحبة وهي ما بين جمع وفرق وسعادة ورجاء، تفرح بإشراقات العطاء الإلهي على صفحة القلب حين تتلألأ على مرآته أنوار الحضور الإلهي وفيض رحمته، ويستدعي لتصوير جمالية هذه التجليات الآية الكريمة: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾[15]، وتوظيفه لكلمة "المصباح" لما يحمله من دلالة قوة الإشراق من خلال الظلمة فتنقشع في تلك المساحة والتي قصد بها "مساحة القلب للصوفي المحب"، فإشراقة المصباح هي نور الله وهدايته. والنور أصل التكوين في كل الموجودات التي خلقها الله كما يرى السهروردي، ومبدأ الوجود الحقيقي إستناداً إلى الآية الكريمة: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[16]. فالحق تعالى نور، والنفس من أمره ونوره.

كما يتضح استدعاء السهروردي لمعاني الآية ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[17] في قوله "صافاهم فصفوا له.. للإشارة إلى أن محبة الله لعباده قد سبقت محبتهم. ويزخر المشهد الأسلوبي في النص السابق بمعطيات تعبيرية تعكس المعاناة الوجدانية التي يعانيها السهروردي، حيث يظهر الاعتماد على استعمال "الضمائر" في صيغة الجمع" عودوا، صافاهم، فصفوا، فقلوبهم"، فالضمير يشير إلى المضمر من أعماق النفس وما تموج به من مشاعر.

14- السهروردي، ديوان السهروردي، المكتبة المصرية للنشر، 2005م، ص48.

15- سورة النور، الآية 35.

16- سورة النور، الآية 35.

17- سورة المائدة، الآية 54.

وتتوارى هنا الذات العارفة وراء ضمير "الجمع الغائب" لتحمل دلالة التلون واللااستقرار ما بين غياب وحضور وفرق وجمع وقبض وبسط وتعكس التضرع وافتقار الذات إلى معبودها عكسته الصيغة الطلبية للفعل "عودوا بنور الوصل"، وحمل استعمال ضمير الجمع مع الفعل الطلبي دلالة التعظيم لله تعالى. ومن هنا جاء الاعتماد على ضمير غائب ولم يستعمل "الأنا" كضمير متكلم يعبر عن الهوية ليعكس غياب "الأنا" والكينونة أمام عظمة الحضور الإلهي المتجلي في قلب العارف في حال فنائه.

فمن حيوية التجربة وعمقها تستمد المفردة حيويتها وعمق دلالاتها، ومادام العارف هنا يعبر عن معاناة وجد داخلية لذا تتجلى آثارها في الصياغة اللغوية، فهو يرمز لحالة "الفرق" بالهجر، ويرمز لحال "الجمع" بالوصال كناية عن القرب، فيوظف "الوصال، والصباح "بما تحمله من دلالات السعادة وإشراقة أنوار التجلي على صفحة القلب، فتجلت الذات المقدسة من خلال توظيف السهروردي "للضمير" مصدرا للعطاء والرحمة والعطف، بينما يبدو الصوفي المحب مصدرا للافتقار والخضوع لهذه الذات المقدسة. ويتضح من اعتماد السهروردي على الفعل المنفتح على الزمن الماضي لما يحمله من دلالة الامتداد والاستمرارية "صافاهم، فصفوا"، ولتعكس شوقا متجدداً لاينتهي تحمله الذات الصوفية لمعبودها. وفي ذروة الوجد في حال فنائه يصرح السهروردي:

حضروا وقد حضرت شواهد ذاتهم فتهتكوا لما رأوه وصاحوا[18]

فهنا يصور حال فناء المحب في شهوده عند استيلاء الحب على قلب المحب العارف حتى تغيب الروح فلايبقى سواه تعالى، لأن الوجود الحقيقي هو وجوده. فالحق في البيت السابق يتجلى للعارف في لحظة وجد ينطبع فيها الحضور الإلهي على صفحة القلب فيشرق بأنوار توحيده في لحظة المحو، إذ تمحو وحدة الشهود القلبي كل ماعدا الله عن شهود العارف وعن وعيه وشعوره فلايشهد سوى الحق. فيفنى عن شهود الأغيار، وعن شهود نفسه ولايبقى إلا مشهوده. كما عبر الحلاج أيضا عن هذه اللحظة الاستثنائية الشعورية في ذروة شهوده بقوله:

18– السهروردي، ديوان السهروردي، ص53.

"حسب الواجد إفراد الواحد له"[19]. والواجد هو العارف المحب، وإفراده الله هو إقراره بتفرده وتوحيده وعظمته، بمعنى أن الله واحد يحب من يشهد على وحدانيته. ولذلك يظل العارف حريصاً على تنزيهه لله عز وجل مهما صدر عنه من أقوال تعبر عن حال وجده.

وفي البيت السابق للسهروردي يتجلى عالم يحمل ثنائية الحضور والغياب، والحب والخضوع، والفناء والبقاء بحسب حال الوجد التي يكابدها الصوفي فيصرح بما يتجاوز الذات وحدود بشريتها إلى أفق تعانق فيه الروح المطلق. فيعكس النص بسط السهروردي الذي يتجلى في انتشائه بالشهود.

وذات المتكلم هنا لاتزال متوارية وراء "ضمير الجمع الغائب" في "حضروا" لتحمل دلالة غياب الكينونة أمام جلال شهود الحق في اللازمان واللامكان في إشارة إلى أن زمن الصوفي الشعوري هوزمن خارج حدود الزمن الاعتيادي لأنه يتعلق بشهود القلب لمحبوبه وخالقه وهذا ماحملته مفردة "لما رأوه" من دلالة شهود القلب وتوحيد شهودي في حال الوجد للصوفي.

وبفعل الوجد يصبح السُكر غيبة ومحواً للغير، واستغراق تام في الحقيقة المطلقة. فهو سكر ناتج عن شهود جمال الحق على مرآة القلب وحضوربه. فلكل قهوة سكارى، ولكل بحر غرقى، وكم من حائر في الظلمات زحزح عن نور الشمس، وبين حائر أحرقه ضوؤها في قربها الأقرب[20].

وهذه الخمرة والتي قصد بها الصوفية "المعارف الأزلية" ترفع العارف ليتذوق حلاوة شهود الحق. يصفها السهروردي:

هي خمرة الحب القديم ومنتهى غرض النديم فنعم ذاك الراح[21]

ويصرح السهروردي في حال الشهود بقوله:

19- الحلاج، الطواسين وأخبار الحلاج، تقديم: عبدالحفيظ مدني، مكتبة الجندي، القاهرة، ط2، 1970م، ص198.

20- السهروردي، مقامات الصوفية، تحقيق: إميل المعلوف، دار المشرق، بيروت، ط1، 1993م، ص142.

21- السهروردي، ديوان السهروردي، ص53.

وكاشفنا حتى رأيناه جهـــرةً بأبصار صدق لايواريه أستار
وخالفنا في سكرنا عند نحونا قديم عليـــم دائم العفـــو جبار
سجدنا سجوداً حين قال تمتعوا برؤيتنا إنـــي أنا لكم جـــار[22]

فهنا فناء وجد يتجلى فيه توحيد شهودي، فيشهد العارف المحب خالقه بقلبه الذي تتجلى فيه أنوار نور الحق، وفي الأبيات السابقة يصرح السهروردي في حال وجده عن شعور عميق في وعيه الوجداني بعلاقته مع الله تعكس فهماً ووعياً لعلاقة بين الأنا والله قوامها الحب. فالإنسان هو الفكرة الأزلية الموجودة في علم الله قبل خلق الجسد بحسب الصوفية. فجوهر الذات الإلهية هو الحب، حين أحب الحق ذاته في وحدته المطلقة قبل الخلق، وبالحب تجلى لنفسه في نفسه، فلما أحب أن يرى ذلك الحب في صورة ظاهرة فكان آدم الذي تجلى الحق فيه وبه[23].

لكن السهروردي في خطابه المتلون بالوجد والشوق يظل في مقام العبودية كما يظل مؤمنا بتلك المسافة بينه وبين خالقه في مقام الربوبية، فلا اتحاد ولا امتزاج وإنما توحيد شهودي يكابده الصوفي بفعل الوجد ويسافر إليه عبر شوق العابد المحب ليراه بأنوار قلبه "رأيناه بأنوار صدق..". ويوحده في مقام الحب ويشهده بأنوار القلب، عبر عنه السهروردي بقوله "سجدنا سجوداً" هو سجود الخضوع والعبودية للحق تعالى.

ويشير السهروردي بأنه لاينبغي لوم العارف إذا نطق في حال وجده وشهود قلبه بما يكابده من أحوال بقوله: ياصاح ليس على المحب ملامة إن لاح في أفق الوصال صباح
لاذنب للعشاق إن غلب الهـــوى كتمانهم فنما الغرام فباحوا[24]

وبالتالي كانت ممارسة الحب لدى العارف بهذا المعنى فعل يتجاوز فيه حدود البشرية الضيقة، فيتجاوز كل ما يبعده عن محبوبه، ويرسم طريقا للتوحيد لمعبوده من خلال مقامات

22- السهروردي، المصدر السابق، ص62.
23- ابن عربي، المصدر السابق، ص9.
24- السهروردي، ديوان السهروردي، ص53.

الحب وأحوال الوجد ومعاناة الشوق. ومن هنا انبثقت اشكالية السهروردي مع المتلقي في القرن السادس عشر والتي أدت إلى الحكم بقتله. حيث عكس خطابه "خطاب الوجد "تجاوزاً للمفهوم النفسي السائد لأحدية الله وحدود الأنا، فعبر السهروردي من خلال خطابه عن تجاوز حدود البشرية في تعلقها وانشغالها المادي، وانطلق إلى أفق أكثر اتساعاً بفعل الحب.

وفي قوله: بكل صبـــح وكـــل إشراق أبكي عليكم بدمع مشتاق

قد لسعت حية الهوى كبدي فلا طبيـــب لها ولا راق

إلا الحبيب الذي شُغفت به فإنه رقيتي وترياقي[25]

يفتح أمامنا من خلال النص آفاقاً نتجاوز من خلالها البعد الحسي لنتلمس البعد الإيحائي الذي يتماهى مع تجربته الروحية، فنتجاوز المعاني الحرفية الحسية إلى أفق الشوق اللامتناهي، وروحانية التجربة للذات الصوفية المسافرة عبر مقامات الوجد في معراجها الروحي الذي لايتحقق إلا بفعل الشوق الذي يسموبها. فالشوق والحب جوهر وسر حركة الموجودات في الكون عند السهروردي، فغاية الموجودات هي السمو إلى الكمال الكلي، نور الأنوار "الحق تعالى"، وهذا السفر العشقي ضمن نظام كلي توقاً وسفراً وإلهاماً وكشفاً.

وإذا كانت الصورة الفنية تجسيد للمعنوي في صورة الحسي، فإن خطاب الوجد الصوفي يتمازج فيه المادي والروحي، حيث يعتمد الصوفي على التشخيص لمقاربة المادي والروحي. ويتجلى ذلك في استخدامهم اصطلاحات ترتبط صور معانيها من موضوعات كالسكر والخمرة وغيرها.

التوحيد الشهودي.. شهود الحق على صفحة القلب:

في هذه المرحلة من رحلة الوجد تنمحي الكثرة وتتجلى الوحدة ويفني المتناهي في اللامتناهي، حيث لايرى الصوفي لنفسه ولا للعالم الخارجي وجوداً. لأن الحقيقة واحدة كما يراها السهروردي. شمس واحدة، لاتتعدد بتعدد مظاهرها من البروج، فالمدينة واحدة

25– السهروردي، المصدر السابق، ص67.

والدروب كثيرة والطرق عديدة[26] فهو يرى الله وحده ويعرفه معرفة ذوقية. تتضح في قول السهروردي: وضلوعي لها هواك ضلوعاً بل وقلبي لها المحبة قلب[27]

وهنا يستعير السهروردي لفظ "ضلوع" والضمير "الكاف" معبراً عن استيلاء الحب الإلهي عليه وانغراقه فيه في ذروة الوجد حتى يتلاشى الشعور بالإرادة الإنسانية، ويستولي على قلبه شعور غامر بأن الواحد هو الكل، وليس ثمة إلا الواحد الأحد. وإن حمل البيت معنى الامتزاج ما بين الهوى والضلوع عبر عنها في مفردة "ضلوعي" التي ربطها بضمير المتكلم "الياء"، وفي مفردة "هواك" التي اقترنت بضمير الخطاب "الكاف"، والتي أرد السهروردي من خلالها التعبير عن حالة شعورية في حال وجده وفنائه عن نفسه وبقائه بالحق. فما بين حنايا الضلوع يموج وجد، وفي أعماق المهج أمواج شوق عروجها في مقامات القرب، وهو الفاني في إرضاء معبوده والتقرب إليه بفعل الحب لا بدافع الغرض.

ومن خلال هذا السياق التحاوري أراد السهروردي باعتماده على الضمائر أن يعبر عن حاضر لايغيب، وحب أزلي يتناسل بين ضلوعه ليسمو به في مقامات الشوق، فيعكس فاعلية المفهوم الصوفي وتجليات الوجد عبر ثنائية السكر والصحو والشوق والوجد.

وفي ذروة عالية من التوهج الانفعالي يصرح السهروردي:

لأنوار نور الله في القلب أنوار وللسر في سر المحبين أسرار[28]

فيعبر عن وحدة شهود يوحد فيها ربه، لأنه تذوق الشوق إليه وتيقن من أحديته التي تسيطر عليه وتسري في قلبه أنوار حضور لجلاله تعالى حتى شهده في كل شيء. فأصبح معبوده يحيا فيه ويسري في روحه وكيانه أنوار توحيد ويقين حتى فنيت إرادته في إرادة معبوده.

26- السهروردي، هياكل النور، تحقيق: أحمد عبد الرحيم، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2009م، ص168.

27- السهروردي، ديوان السهروردي، ص73.

28- السهروردي، المصدر السابق، ص62.

وهنا يعكس حالة الشوق للذات الصوفية التي لا ترتاح إلا بالاستغراق في شهود حضرة معبودها، ولا يأنس القلب إلا بأنوار جلاله، وهنا يبدو تصاعد التجربة الروحية في مقامات الوجد بما فيها من توتر وقلق للذات الصوفية وهي تسافر في معراجها الروحي فتهيم بنشوة المعرفة وإشراقة أنوار الشهود.

فهو يشاهد الله في كل شيء في حال فنائه، ويعتبر الله فوق كل شيء. فالتوحيد في نظر السهروردي لايقصد به ما نتشر عن إدراك الله بالوحدانية الذاتية والقيومية، وإنما يعني تجريد الكلمة الصغرى وهي النفس عن علائق الأجسام في المكان حتى ينطوي في الربوبية والقيومية كل نظر في مبادئ الوجود ومراتبه، ولا مقام وراء هذا المقام[29]. لأن قوام التجربة العرفانية هي المحبة الإلهية، وجوهرها توحيد قلبي شهودي بأنه لاموجود سوى الحق تعالى، وهذه الحالة من شهود الحضور الإلهي ومحبته وسلطانه في القلب هي تجلي لعقيدة التوحيد ولاتحمل أي معنى للامتزاج أو الاتحاد. وإنما هو "توحيد وجد" أو توحيد قلبي شهودي يحمل حقيقة توحيد الواحد الأحد منطوياً على معاني المحبة والقرب والافتقار. وتتصاعد حرارة العاطفة فيصرح السهروردي:

صارلـــي في هواه رتبـــة ماحازها في هواهم قط صب

وضلوع من الجوى واهيات ودموع بذائب القلب سكب[30]

فهنا في ذروة الوجد يتجلى قلق الذات وتوقها وهي ما بين بقاء وفناء ومحو وإثبات، فإن تجلت أنوار المحبوب على صفحة القلب أشرقت النفس، وإن احتجب فقلق وشوق إلى مقام تتجلى فيه إشراقات الحق على القلب. ولذلك يصرح السهروردي بشوقه للرحيل قائلاً:

ذريني أسيـــر ولا تنـــوحي فإن الشهب أشرفها السواري

وإني في الظلام رأيت ضوءًا كـــان الليل بـــدلاً بالنهـــار

إلى كم أجعل الحيات صبحي إلى كم أجعل التنين جـــاري

29– السهروردي، مقامات الصوفية، ص189.

30– السهروردي، ديوان السهروردي، ص73.

وأرضى بالإقامة في فــلاة وفي ظلم العناصر أين داري
ويبدو لي من الزوراء برق يذكرني بها قــرب المــزار
إذا أبصرت ذاك النور أفنى فما أدري يميني من يساري[31]

فهنا يسيطر عليه هاجس المسافة والتوق إلى القرب ورفع الحجب المادية، فتحمل الأبيات دلالة الرغبة في الخلاص بدافع الشوق إلى عالم الحقيقة المطلقة، فحرقة البعد لوجود المسافة تعكس معاناة الذات المُحبة التي ترى في الأغيار حجاباً وظلاماً بل ووحشة، عبر عنها السهروردي بالظلام وبالفلاة التي يضنيه جدبها ووحشتها "وإني في الظلام رأيت ضوءًا"، "وأرضى بالإقامة في الفلاة". فهو لايأنس إلا بأنوار محبته، ولذا يتجلى في مناجاته توق لشهود أنوار العالم العلوي، فيتحقق بالغياب مجازاً عن عالمه الحسي حين يرتقي في مقامات الوجد ومستويات الفناء.

وهكذا تتجلى في النص الصوفي تحولات التجربة الروحية في ارتقائها من مقام إلى مقام، ومن حال إلى حال، فالصوفي لا يتحقق له الارتقاء إلا إذا تجرد من السوي، أومن ملذات الدنيا، إلى أن يصل إلى حالة يشرق فيها ضياء المعرفة وأنوار الحضور الإلهي ويتذوق محبة الحق تعالى عبر مقامات الحب ومستويات الفناء. فأول الشروع في الحكمة الانسلاخ عن الدنيا، وأوسطه مشاهدة الأنوار الإلهية، وآخره لانهاية له[32].

وكانت أبيات السهروردي لوحة صوفية نسجتها معاناة وجد وإشراقات مجاهدة، عكست ذاتاً صوفية قلقة بين ثنائيات البقاء والفناء والمحو والإثبات دون استقرار. وهنا تتجلى رحلة الوجد المتلونة بالشوق والقلق في رحلة اللاوصول.

كما يتجلى في شعر السهروردي منحى فلسفياً وتصويرا لصراع نفسي من أجل الخلاص والتحرر من أسر قيود المادة، مما عكس اغتراباً نفسياً وفكرياً يدفعها إلى التوق للخلاص

31– السهروردي، المصدر السابق، ص98.

32– السهروردي، اللمحات في الحقائق، تحقيق: إميل المعلوف، دار النهار، بيروت، 1991م، ص148.

حيث السكينة الروحية، بالتحرر من قيد الجسد لتعود لعالمها الحقيقي، وخلاص الروح المعذبة باغترابها في خضم السلطة المجتمعية الدينية وإجماع الفقهاء في حلب على قتله.

وبالتالي تقوم فلسفة الموت عند السهروردي على تطهير الذات وتحرير الروح للتحقق بالقرب من الحق تعالى، فتنبثق في غائيتها من قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(33) ويتجلى فيها فناء الصوفي عن الغيرية، والتجرد للمحبوب الخالق، لأن علة الوجود هي عبادة الحق، وفطرة الخَلق التوجه إليه تعالى.

مناجاة التوق إلى القريب البعيد بلا مسافة:

يمثل الموت في فلسفة السهروردي الصوفية حالة تحرر وانعتاق من الحجب المادية للوصول إلى الحقيقة، فلا قرب إلا بالخلاص من الشعور بالإنية فلا يبقى إلا الشعور بالواحد الأحد من خلال الفناء، وهو محو لكن لابد أن يعقبه بقاء، وهو أيضاً شكل من أشكال الفناء الشعوري بالمادية لكنه بالنسبة للصوفي تحقق بحياة وترق للروح في احدى مستويات الشعور.

وفي توقه إلى الخلاص من سجن الجسد، ومن حياة يراها كالموت لأنه يرى بأنوار قلبه أن هناك حياة حقيقية يريد أن يتجاوز الحجب المادية للوصول إليها فيقول:

قل لأصحابي رأونـــي ميتا فبكونـــي إذا رأونـــي حزنا
لاتظنـــونـــي بأنـــي ميـــت ليـــس ذا الميـــت والله أنا
أنا عصفـــور وهـــذا قفصي طرتُ منـــه فتخلـــى رهنا
وأنـــا اليـــوم أناجـــي مـــلأ وأرى الله عيـــانـــا ههنـــا
فاخلعوا الأنفس عن أجسادها لتـــروا الحـــق حقـــا بينا
لاترعكم سكرة الموت فماهي إلا انتقـــالا مـــن هنـــا(34)

33– سورة الذاريات، الآية 50.

34– السهروردي، ديوان السهروردي، ص122.

فالجسد أو الوجود الشخصي المادي لا يراه إلا أسوارا تتوق روحه للخلاص منها لتتصل بعالم الحقيقة الذي لا يمكن الوصول إليه إلا بانعتاق الروح. وتتجلى في الأبيات الذات المحبة القلقة وهي تحاول من خلال معاناة الوجد ومجاهدة النفس أن تتجاوز حواجز الجسد وحجب المادة التي تشكل بالنسبة إليها مسافة تشعل التوتر وتؤجج الشوق إلى خالقها "القريب البعيد بلامسافة"، كما يتجلى في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[35].

ومن خلال معاناة المجاهدة يتجلى هذا التوق إلى تجاوز مسافة القلق والتوتر للذات الصوفية. ويعتمد السهروردي الضمير "أنا" في "أنا عصفور"، و"أنا اليوم" للتعبير عن الحضور الكلي للذات في حالة خلاصها من أسوار قفصها، كما يتكئ على الفعل المضارع "أناجي، أرى الله" بحمولته الدلالية المنفتحة على الاستمرارية ليشير إلى حضوره على مستوى الإرادة والشعور والروح مع الحقيقة المطلقة التي يعبدها ويوحدها.

ثم يستخدم الفعل الطلبي "فاخلعوا، لاترعكم" بما يحمله من دلالة انفعالية تعبيرية في سياقه التحاوري، وليشير من خلاله إلى مستقبل الذات بعد انعتاقها من عالمها المادي وتحققها بالسلام.

فتحضر في النص ثنائية السجن أو القيد والانعتاق والتحرر والقرب لتترجم انفعالية الذات المشتاقة إلى القرب، ومن هنا تبدو مصطلحات الصوفي مفعمة بمعاني الوجد والمجاهدة في التجربة الذوقية. كما تتجلى لغة الرمز والإشارة التي تنسجم مع طبيعة التجربة العرفانية، ذلك أن الصوفي يعيش حالة اغتراب مع واقعه المادي وجسده، ومن هنا كانت مفرداته محملة بدلالات القلق والشوق في تجربته بتحولاتها الشعورية ومدها وجزرها.

وبالتالي يظل النص الصوفي منفتحا على التأويل بما ينطوي عليه من دلالات إيحائية تتجاوز المعاني الاعتيادية الظاهرة. فالنص يعد رسالة شعرية للصوفي وهو يكابد تحولاته الروحية، ويقر من خلالها بعدم تحقق الوحدة الحقيقية، وأنها تظل حالة شعورية فهو لايمكنه تجاوز الواقع المادي والتعين الشخصي إلا في نطاق الشعور، كما أن توقه يظل مرتبطا برفع الإنية أو الجسد المادي وليس الإثنينية بينه وبين الحق تعالى.

35- سورة ق، الآية 16.

ويمكن القول أن حال الفناء لاينفصل عن الحب، حيث يتحقق الصوفي بالقرب شعوريا من الوجود الحق، فهذه الذات المسكونة بالوجد والتوق إلى معبودها والتي يسيطر عليها هاجس الاغتراب الفكري والروحي فيتشكل القلق من حضور مسافة الانفصال وشوق الاتصال بالحضرة الإلهية، فتسافر إليها عبر مقامات الحب وحال الفناء في مجاهدة متواصلة وسفر لا ينتهي لأن حضورها لا يكون إلا بالحق تعالى.

وهذا السفر المقترن بالاغتراب والمسكون بالشوق لاينتهي، لأنه سفر التوق إلى مواطن القرب، وكلما وصل الصوفي إلى درجة من درجات القرب يشتاق إلى درجة أعلى ومقام أسمى. واغترابه ما هو إلا اغتراب الروح التي تتوق إلى العودة إلى موطنها الأصلي، ومن هنا يصبح الشوق والقلق والوجد مرادفاً للاغتراب الذي يجعل الذات المحبة في حالة توق دائم إلى رضا معبودها والقرب منه.

كما أنها في رحلة الوجد والفناء تظل دائماً تقر بحقيقة أن الله تعالى والإنسان معبود وعابد يجمعهما الحب ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[36]، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[37] وكلما كان العبد أشد إيماناً كان أشد حباً لله وأحرص على رضاه وطاعته. وإذا كان العامة يحبونه لأفضاله ونعمه، فإن الصوفية يحبونه حب عبودية وإخلاص.

إن حال الفناء كثمرة للحب يرتقي فيها الصوفي عبر مراحل متصاعدة ليصل إلى حالة يدرك فيها ذوقياً أنه لا موجود على الحقيقة إلا الله تعالى. إلا أنه في حال الفناء يظل ما بين فناء وبقاء وبسط وقبض فهو لا يعيش بسطاً معرفياً كاملاً لأنه لا يستطيع الخلاص من عالم الحس وأسر المادة، فتظل روحه تتوق إلى التحرر والتحقق بالقرب بفعل الشوق، ومن ثمة تظل الذات الصوفية تكابد أمواج البسط والقبض، والبعد والقرب، وسعادة تجلي الحقائق على صفحة القلب في حال الشهود القلبي في تجربة روحية تفصح عن حقيقة أن الحق تعالى ليس منفصلاً عن عباده، وأن الإنسان مرتبط بخالقه ارتباطاً وثيقاً مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ

36- سورة المائدة، الآية 54.

37- سورة البقرة، الآية 156.

عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾[38]، وكذلك الحديث القدسي: "لايزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصربه، ويده التي يبطش بها..."[39]. وهذا دلالة مكانة الإنسان عند خالقه الذي تتأسس علاقته به على العطف والحب وهي منة وتفضل إلهي على عباده.

الخلاصة:

إن تجربة الفناء تتأسس على الحب وتحمل معاني الخضوع والتسليم المطلق للإرادة الإلهية والافتقار إلى رحمته وعطفه وعنايته. ومشاعر الوجد للعارف تنطوي على إقرار لإرادة الله وتسليم مطلق لها وليس اتحاداً ولا تداخلاً بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية.

ومن خلال النص الصوفي تبدو مناجاة للعارف في لحظات وجده تحمل معنى شـــهود الله تعالى في كل شيء، شهود للحق منزه عن كل حدوث. فحمل خطاب الوجد صـــدق العاطفـــة وخضوع المحب المخلص في مقام الحب لمعبوده وخالقه.

38- سورة البقرة، الآية 186.

39- أبوبكر السيوطي، الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة، دار الفكر، بيروت، 1995م، ص258.

المصـــادر

1- ابن عربي، الفتوحات المكية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ج1، 2006م.

2- ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، تحقيق: محمد الفقي، دار الكتاب العربـــي، بيـــروت، ج2، د.ت.

3- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ج11، د.ت.

4- أبوبكر السيوطي، الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة، دار الفكر، بيروت، 1995م.

5- الجرجاني، التعريفات، مطبعة الحلبي، القاهرة، 1983م.

6- الجنيد، رسائل الجنيد، تحقيق: أحمد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2006م

7- الحلاج، الطواسين وأخبار الحلاج، تقديم: مدني، مكتبة الجندي، القاهرة، ط2، 1970م.

8- السهروردي، ديوان السهروردي، المكتبة المصرية للنشر، 2005م.

9- السهروردي، مقامات الصوفية، تحقيق: إميل المعلـــوف، دار المشـــرق، بيـــروت، ط1، 1993م.

10- السهروردي، اللمحات في الحقائق، تحقيق: إميـــل المعلـــوف، دار النهـــار، بيـــروت، 1991م.

11- السهروردي، هياكل النور، تحقيق: أحمد عبدالرحيم، مكتبة الثقافة الدينيـــة، القـــاهرة، 2009م.

12- الطوسي، اللمع، تحقيق: عبدالحليم محمود، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1960م.

13- الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق: محمـــود أمـــين، مكتبـــة الكليـــات الأزهرية، ج3، 1992م.

14- حسن الشرقاوي، معجم ألفاظ الصوفية، مؤسسة مختار للنشر، القاهرة، 1987م.